٢٠٠٧/٠٢/١٩

الزمان

قراءة في لون أيها الدم لأدونيس
اسئلة عن الحضور المهيمن والتكوين الشعري

محمد سمير عبد السلام
ناقد من مصر

تمثل قصيدة " لون أيها الدم " لأدونيس قدرة سردية علي إعادة إنتاج الانفصال بين الهوية المتعالية، والصيرورة الأرضية ذات التكوين التمثيلي الشعري خارج أي مفهوم ثقافي سابق حول خطاب شعري مستقل، لكن الشاعرية هنا نتاج تفرزه طاقة الأنا المختلطة بتحولات الوجود الأرضي، وتناقضاته التصويرية باتجاه مأساة فنية تنبع من داخله، ولوكانت في اتجاه مضاد لتكوينه الأول. هل صار التناقض التكويني بديلا عن انفصال الأرض عن الهويات المتعالية الخارجة من حالة انفصال بعيدة عن طاقة الشعر المولدة من حالة القصيدة ؟ تلك الحالة التي تثبت الانفصال الذي لا يسعي أبدا للتوافق الكوني، ولكن لتعارضات ذات مسارات مختلفة كالانشطار الملازم لأي مفهوم كلي فيما بعد الحداثة، ثم تبقي حالة تفاعل تالية كأثر تخلفه السابقة في المؤول لتصير اللوحة تكوينا تفاعليا صاخبا بالأرض خارج اسمها الأول، وأي حدود تسبق التفاعل الذي ولدته كتابة أدونيس.

يري فريدريك نيتشه في مولد التراجيديا أن إيحاءات الرعب المتصاعد من الألم، والتحول باتجاه عمق المأساة قد ازدوج بالحلم الأبولوني بالبقاء، والحنين للبهجة المناهضة لقوة المعاناة والجنون والموت (راجع - The Birth Of Tragedy tran. By NIETZCHE Francis Golffing ٢٠٠٢) . هل من سبيل للتوافق إذن في صيرورة يختلط فيها التعالي بلون الدم المتكاثر في النص والأرض معا ؟

إن الصوت عند أدونيس يتعالي ليحاكي حركة الدم المقطوعة عن أصالة البهجة. هل هي بهجة متحولة كالكتابة نفسها ؟ أهي فرح بالتناثر وامتداد الانشطار في بنية الصوت المتعالي ؟

يقول :

" ما القبر الذي سيأخذك السفر إليه أيها المترحل ؟.. أعط هذه البغلة لسفينة تمخر في الحنجرة، أولرأس ليس إلا حلبة للرقص.. بشر يعيشون، ويفكرون كأنهم لا يعرفون أن يغسلوا وجوههم إلا بالدم ".

صورة القبر تستبق الألم، والمعاناة في بروزها كغاية للمخاطب. فالقبر جسد للتحول المأساوي الذي يقع في قلب الحالة السردية للقصيدة ؛ إذ إن الرحيل بكارة إنتاج سياق آخر، غير معلوم لكنه يختلط بذكري بهجة ذات نزعة إنسانية عميقة لا تصطدم أبدا بالتحول، ولكنها تفترض وقوعه المناهض لتكوين الصوت منذ بداية التساؤل.

للصوت ـ إذا ـ علاقة معقدة بالدم الماثل في عبثية المشهد منذ سطوره الأولي ؛ فثمة فاعل يبدوكمركز يجسد الهوية المتعالية، أوالماضي، أوالمعجم ؛ هذا الفاعل ذوالحضور المهيمن ـ في محاكاته للمجموع ـ يختلط بغياب محتمل في الأداء السردي ؛ فغسل الوجه بالدم يؤول الحضور بمزيد من التدمير الانتشاري المجرد، الذي أدخل الأنا في سياقه قبل أن يتطابق مع هوية ما، وذلك من خلال علامة القبر الاستباقية لوجود الفاعل.

هل للعدم طاقة تستبدل الصوت حين يسعي جاهدا لرسم حدوده ؟

تطرح القصيدة تساؤلات للوعي حول مصيره الحضاري / الأرضي تتعارض مع إغواء محاكاة الفاعلية، دون نهاية للتساؤل، أوشاعرية المأساة في صورتها الوجودية.

يقول :

" ورأي علي رصيف ما تبقي من قصر المجاز، قوارب صيد تبدوكأنها بقايا مذنبات ارتطمت من هنيهة بالصخر، والموج، حولها أشباح صيادين يسألونها : ما الأبدية ؟.. وما هذا الطـفل الزمـن ؟ ".

التساؤل حول الزمن يعيد إنتاج المعرفة بالأنا في شكل تأويلي مغاير يرتكز علي استعادة الماضي في مستقبل ديناميكي شبحي يتجاوز التكوين من خلال محاولة تعريفه، يتجاوزه في مادته الخاصة، صورته الحاملة للتعارض، والتناقض. إنه الذوبان في صخرية السؤال، مع اختفاء الفاعل، لا محوه. يعيد السؤال تكوين نفسه في الهواء، بينما يكمن في شاعرية الصخور، والحديد، والمذنبات، والآلة التي تحوله إلي طاقة للفراغ كعلامة تشبه المعرفة، وتؤجل السؤال كأنه لم يحدث. إن التكوين الذي تدور بشأنه الأسئلة هوحالة مثل القصيدة، والشارع، واتساع التداخل، والتفاعل خارج حدود السؤال أوالتكوين نفسه.

يقول :

" اعترض هذا الشاعر، عارضه أيها الشارع. اعمل شيئا يكذب يديه، وعينيه، شيئا يبطل كلماته. تمرد وانقضه ينتظرك حتي في قرون المخيلة، يترصدك حتي في دفتر الغيم، واحتفاء بما يحرضك عليه سيحضن من أجلك التوهم... أشباح تسن أظافرها، وتغرسها في بلاط الشوارع. من أين لك هذا الإكليل المدمـي يـا رأس التـاريـخ ؟ ".

يمتد الشاعر في الشارع، والعكس بشكل تفاعلي جديد تنهدم فيه الحدود الثقافية لهوية الشاعر. أهوإغواء التعقيد الشعري الكامن في تحولات البساطة ؟ في تأويلاتها التي تنفصل عنها ؛ لتستعيد الشاعر، ممثل البهجة التدميرية لتاريخه الخاص، باتجاه الآخر / المحتمل، أوالتكوين التفاعلي المتجدد، والجديد كأحد محاولات الخروج عن النظرية بتوسيع الحدود بعيدا عن الهويات الانفصالية.

من هنا تزدوج حركة التمرد من قبل اليومي / المعارض، بالتفاعل الذي تنتجه القصيدة في علامة الأشباح، فهي مجاز الشارع، وبديله الشعري من تكوينه، أوهي تحولات الكتابة المناهضة لمعني الاتصال في قراءة التاريخ.

وقد تزدوج هذه الكتابة بالمعني الكوني المصاحب لذكري المعاناة، فينتج التفاعل لعبا يختلط بدم يجسد خوفا عظيما، يقول :

" الأفق يتجرع السم شاهدا علي الخوف. في الهواء، والماء، والعشب يولد الخوف، خوف الساكنين من بيوتهم التي رفعوها، خوف المسافرين من طريق، خوف الجسد من رأسه، ومن يديه... رأس الزمن ينكسر، ويكاد أن يتفتت علي مائدة الأبدية، خوفا ترتجف اللغة بين يدي المعجم. لون أيها الدم هذه اللوحة التي نسميها الأرض ".

حالة الخروج ذات الممارسة اللعبية للتدمير، للوحة التي تحاكي الأرض، وتؤجل مفهوم الأرض في حالة القصيدة التفاعلية في امتدادها الكوني غير المحدد. هل هواتساع التشبيه كما هوعند بودريار ـ بوصفه استباقا لمعني الأرض ؟

لقد أتت الأرض كغياب كبير في الخوف المناهض للبروز في العالم، الخوف لوحة للأرض، والأرض لوحة للخوف، والقصيدة معا.

لقد ازدوجت الكتابة بالتلوين أوالأداء التدميري فصار الدم منتجا للتفاعل، والتعارض في آن. وقد يزدوج الدم بالسياق الجديد المحتمل كقصيدة، يقول :

" وإلي ما تبقي من الأشياء التي لا أسماء لها، أرفع هذا النصب، محفوفا بآلات السفر، وآلائه، يمسرحه غسق اللغة، وتزكيه جوقة موسيقي تجيء من حناجر غامضة، في تاريخ يكتبه صـدأ المعني، لـون، لـون أيهـا الـدم هذه اللوحـة التـي نسميهـا الأرض ".

لقد أتت علامات الماضي باهتة هنا، فهي علي حافة تحول يمتزج فيه الألم بسياق آخر يوشك أن يستبدلها، أوأن يعيد تشكيل مادتها في النصب، الارتفاع الشبحي مرة أخري.